مجلة كلية
الدعوة الإسلامية
مجلة إسلامية - ثقافية - جامعة - محكمة

العدد
الخامس عشر
1998

1428 من ميلاد الرسول صلى الله عليه وسلم 1998 أفرنجي

قراءة في شرح أبي الوليد بن الأحمر المسمّى «استنزال الفرج بعد الشدة في شرح قصيدة البردة»

الدكتورة: سعيدة العلمي
كلية الآداب ـ فاس / المغرب

تعد كتب الشروح من أهم المصنفات الأندلسية، وقد شكّلت تراثاً أدبياً وعلمياً زاخراً في تاريخ التأليف عند الأندلسيين «فباستطلاع كتب التراجم الأندلسية نلاحظ كثرة واضحة في كتب الشروح من أوائل عهد التأليف إلى أواخر أيامهم في غرناطة»[1].

وتختلف هذه الشروح باختلاف المواد والشرّاح، فلقد جاءت متنوعة، تناولت مختلف العلوم الإسلامية من نحو، ولغة، وشعر، وسيرة، وفقه، وفرائض، وتفسير، وحساب، فكثرت لذلك الشروح، والحواشي، والطرر.

(1) انظر تاريخ النقد الأدبي في الأندلس: د. محمّد رضوان الداية، ص: 72، ط. 1401 ـ 1981.

وتختلف هذه الشروح أيضاً باختلاف ثقافة المؤلف، وظروف تأليفه لهذا الشرح أو ذاك، ومستوى من يكتب لهم.

وإذا كانت بداية انطلاق التأليف في الشروح جاءت متزامنة مع دخول الكتاب المشرقي[2] إلى الأندلس خلال القرن الثالث الهجري. فإن البداية الحقيقية قد تمت في القرن الرابع[3] وما بعده حيث تعددت الشروح واتسعت لظهور فئة من الأعلام، وتزايد النشاط التعليمي المعتمد على الرواية، والحفظ، والتلقين، «فعرفت مجموعة من الشرّاح الأندلسيين بالضبط في النقل، والدقّة في الجمع، والتثبت في الرواية، والعناية في الشرح، وحفظوا لنا مجموعات شعرية، ودواوين مفردة أحياناً، ومن هنا جاءت أهمية الشارح الأندلسي في تاريخ الأدب العربي»[4].

ولقد كانت الغاية من هذه الشروح تعليمية، فكان لزاماً على الشارح جعلها في متناول المتعلّم، وتسهيل الكشف عما صعب منها حتى يتأتى له مرامه، فقد كان شرح هذه الكتب ممّا يعلي مقام الشارح، ويبيّن براعته وقدرته على الحفظ، وإبداء مهارته في هذه الصنعة ليكون لمن شذا تذكرة، ولكل مبتدىء تبصرة.

---

(2) من أوائل الكتب التي أدخلت إلى الأندلس «كتاب الكسائي». وقد حمله من المشرق جودي بن عثمان النحوي بعد عودته من المشرق ولقاء كل من الكسائي والفراء وغيرهما. انظر في ذلك طبقات الزبيدي: 256 ـ 257، ط. دار المعارف، مصر. وفيه أن جودي بن عثمان توفي سنة 198هـ. وهو ما يشهد أن دخول الكتاب كان في ق. 2هـ. كما وضع أبو الحسن مفرج بن مالك النحوي المعروف بالبغل شرحاً على كتاب الكسائي. انظر في ذلك كتاب طبقات الزبيدي: 273. وفي تاريخ علماء الأندلس لابن الفرضي 2/ 142، ط. 1966. ما يشير إلى أن «البغل النحوي كان أيام المستنصر بالله أمير المؤمنين، وأن كتاب أحمد بن خالد في «شرح الحديث» لأبي عبيدة هو بخط البغل.

(3) إذ كثرت الشروح، فقد وضع عبد الله بن سليمان القرطبي المعروف بدَرْوَد، وبعضهم يصغره فيقول دُرَيود: ت325هـ شرحاً لكتاب الكسائي في النحو. انظر بغية الملتمس: 331، ط. مجريط. كما وضع أحمد بن أبان اللغوي، ت: 382هـ شرحاً لكتاب سيبويه. انظر كشف الظنون: 2/ 1427.

ولأبي العباس وليد بن عيسى الطبيخي، ت: 352هـ شروح في حبيب وصريع قريبة مبسوطة. انظر: طبقات الزبيدي: 304.

(4) انظر: تاريخ النقد الأدبي، ص71.

وغرض التفوق في هذه الصنعة جعلهم في حلبة التباري أمام كل ما هو شرقي ترسيخاً لأندلسيتهم، وإثباتاً لذاتهم، ورغبة في إبداء قدرتهم الثقافية، وبزهم المشارقة، وتتبّع أخطائهم، فأبدوا ملاحظاتهم، وسجّلوا ما رأوه من نقص أو تقصير، مما جعل شروحهم تتميّز بطابع الاستقصاء والاستيعاب، وفي ذلك يقول ابن السيد: «إذ لو تكلف غيرنا من شرحه ما تكلفناه لقصر عن مدانا الذي بلغناه، ولأكثر تصحيفه وتحريفه»[5].

ولقد كان توضيح باعهم في اللغة من أهم ما يتبارون فيه، ويتفاخرون به. فالشريشي في شرحه يقول: «وما علمت أحداً شرحها شرحنا، ولا بلغ منها مبلغنا، ولله منشئها من عالم بارع فما اتفق له إنشاؤها إلاّ بعد التبحّر في علوم اللغات»[6].

ولم يكتفوا بهذه الشروح العديدة لكتب اللغة والنحو والدواوين بل كانت لهم ملحقات على هذه الشروح تتمثّل في التعليقات، والتنبيهات، والاختصارات، والاستدراكات»[7].

وقد كان للحكام دور في تشجيع الشرّاح على هذا النمط من التأليف، وكانت رغبتهم ملحّة في استخراج ما غمض من كتب اللغة، والشعر، وهو ما ساهم في إيجاد نشاط متميّز في ميدان الشروح على اختلافها في سائر عصور الأندلس، وإن عدها وحصرها قد يخرجنا عن موضوعنا، ويعرّضنا للإطالة[8].

---

(5) انظر: شروح سقط الزند: 1/ 15، تحقيق جماعة من المحققين، ط. 1964.

(6) انظر: شرح مقامات الحريري للشريشي: 2/ 38، ط. 1 ـ 1979، دار الكتب الوطنية.

(7) مثل كتاب الاستدراك على سيبويه للزبيدي. وقد طبع بروما 1980. فقد استدرك الزبيدي على سيبويه في كتاب الأبنية، وعد نحو الثمانين بناءً لم يذكرها سيبويه ولا غيره من النحويين، وككتاب التنبيه على أوهام القالي لأبي عبيد البكري، ط. دار الفكر، وط. مطبعة السعادة، وغيرهما.

(8) انظر على سبيل المثال رسالة: «الكتب المشرقية في الأندلس رواية وشرحاً من النشأة إلى ق. 7هـ/ القسم الثاني» ـ رسالة لنيل دبلوم الدراسات العليا للأستاذ محمّد بناني زبير، فقد عرض في بحثه هذا للعديد من الشروح الأندلسية على اختلافها.
وانظر أيضاً رسالة شروح بردة البوصيري بالمغرب والأندلس خلال القرنين الثامن والتاسع الهجريين، تاريخها، أنواعها، مذاهبها لسعيد بن الأحرش: رسالة لنيل دكتوراه الدولة.

مخطوط استنزال الفرج بعد الشدة
في شرح قصيدة البردة[9]
لأَبي الوليد بن الأحمر (ت: 807هـ)

هذا الشرح من شروح قصيدة البردة، وقد نالت هذه القصيدة من الشهرة مكانة رفيعة جعلتها محط أقلام الشارحين، إذ حشدوا لها في شروحهم فوائد أدبية جمّة، وأظهروا من خلالها مهارتهم في اللغة، وسعة علمهم في النحو، فلقد اهتم بها علماء اللغة، كما اهتم بها علماء الأَدب، والتاريخ، فشرحها طائفة منهم، وغدت تزاحم غيرها من الشروح، وكانت تعقد حلقات لتدريسها، ويجتمع التلاميذ وطلبة العلم لسماعها[10]، وحلقة أَبي الوليد بفاس كانت مشهودة لما عرف عنه من تحصيل للعلوم والمعارف استحق بها إجازات متعددة من شيوخه[11] فقد أجازه في العلوم التي يحملها إجازة عامة الشيخ الحسن بن عثمان الونشريسي المكناسي[12] الذي كان يحضر دروسه في كتاب مختصر ابن الحاجب في الفقه المالكي، كما أجازه في قصيدة البردة شيخه عبد الرحمن بن رشد المعروف بابن الحفيد[13]. وتعود ثقافته في الأَدب والنحو إِلى محمّد بن محمّد . . .بن داود بن آجروم الصنهاجي المعروف بمنديل، والمكنى بأَبي

---

(9) قد أشار إِلى هذا الشرح الأستاذ محمّد المنوني في بحث له نشره بمجلة تطوان، ص: 176، ع: 8، السنة: 1963، كما تحدث عنه في كتابه: «ورقات عن الحضارة المغربية في عصر بني مرين»، ص: 277، ط. 1979، وذكر أن هذا الشرح موجود بمكتبة الزاوية الحمزية، مبتور الآخر، يقع ضمن مجموع يحمل رقم 546، وأشار إليه الأستاذ عبد القادر زمامة في كتابه: «أبو الوليد بن الأَحمر»، ص: 296، ط. 1978، وقد حصلت على نسخة مصورة من هذا الشرح على يد بعض الأساتذة الأجلاء.

(10) من ذلك ما ذكره الأستاذ محمّد المنوني في كتابه: «ورقات عن الحضارة المغربية»: 276 ـ 278 «أنه لشهرة هذه القصيدة كانت لها مكانة بين منشدات الحفلات المولدية، وكانت شهرتها عند الخاصة والعامة. ولذلك تعددت شروحها».

(11) انظر: أَبو الوليد بن الأَحمر، ص: 138 ـ 139.

(12) انظر: م. س: 118 و138.

(13) انظر: م. س: 139.

المكارم الأديب النحوي الذي درس عليه مقامات الحريري وغيرها[14]، وأخذ إجازة عامة في الأدب والتاريخ عن شيخه عبد الغفار البوخلفي[15]، كما أجازه «الشيخ أبو سعيد فرج بن قاسم بن لب الغرناطي إجازة علمية عن بعض قصائده في المديح النبوي بعث له بها من غرناطة إلى فاس»[16].

وهذا يدل على مدى ثقافة أبي الوليد المتينة، وعلو كعبه في علوم كثيرة استحق عليها إجازات شملت علوم اللغة والأدب والتاريخ... وقد تجلت هذه الموسوعية في شرحه قصيدة البردة، فقد كان هذا الشرح مطية لعرض مدارك ومعارف وعلوم ميّزت شخصية أبي الوليد عن غيره.

ولأهمية هذا الشرح فقد قام تلميذه «عبد الرحمن بن أبي غالب... المديوني الشهير بالجادري الفاسي»[17] باختصار[18] شرح شيخه إسماعيل بن الأحمر، وأضاف له زيادات يقول في ذلك: «فأطلعني شيخنا الرئيس الأديب سراج الأدباء، وتاج البلغاء أبو الوليد إسماعيل ابن الأمير أبي الحجاج يوسف ابن السلطان أمير المسلمين أبي عبد الله محمّد بن فرج بن الأحمر الخزرجي على شرحه لمعانيها، وذكر ما غمض من ألفاظ مبانيها، فرأيته تقلّد لإظهار الفوائد بالطاعة وتكفّل لها على قدر الاستطاعة، وربما زدت في مواضع بنقل غريب لم يشرحه فأردت أن أسطر له في هذا الجزء المختصر القريب، وأذكر ما احتوى عليه من القريض والغريب، وما أستحسنه من معنى عجيب على حسب ما أمكنني»[19].

---

(14) انظر: م. س: 139.

(15) انظر: م. س: 139.

(16) انظر: نثير فرائد الجمان لابن الأحمر، ص: 83. ت: محمّد رضوان الداية. ط. دار الثقافة 1967.

(17) توفي بفاس عام 818هـ ـ 1416م. انظر سلوة الأنفاس: 2/ 157 ـ 158 لمحمّد بن جعفر الكتاني، ط. فاس 1318هـ ـ 1900م، طبعة حجرية، وانظر كتاب «ورقات عن الحضارة المغربية للمنوني»، ص: 277 ـ 278. وكتاب «من أعلام الفكر والأدب في العصر المريني لمحمّد الدباغ»، ص: 116 ـ 146، ط. 1992، الدار البيضاء.

(18) توجد لهذا المختصر نسخ متعددة في خزانات المغرب من بينها نسخة توجد في خزانة القرويين تحت رقم: 40/ 643، المعتمدة في هذا البحث.

(19) مخ. مختصر الجادري: ص1 (من المقدمة).

وفي مدح شرحه يقول:

«هذا الكتاب له فضل وتعظيم إذ فاق منه بنشر القول تنظيم
أبديت فيه من الإبداع لي جملا تفصيلها طاب منه الفرع والخيم
فيه من النحو ما لاذ النحاة به إذ سالموه وقول الحق تسليم
وفيه من لغة الأعراب أفصحها إذ بان منها إلى الأشكال تفهيم...»[20]

وقد سار الجادري في هذا المختصر على نهج أستاذه، متتبعاً ألفاظ البردة بالشرح والتحليل، باحثاً عن الدلالة في أقصى حدودها، مبرزاً في مقدمته شيوع وذيوع هذه القصيدة لدى مختلف الأدباء من مغاربة وأندلسيين، مبيناً فضائلها، ذاكراً من عارضها[21] من الأدباء، مشيراً إلى سنده[22] في روايتها.

ومما تجدر الإشارة إليه أن النسخة الموجودة لدينا من شرح أبي الوليد قد سقطت منها أبيات أضيفت[23] إلى البردة. وقد أشار الجادري في «مختصره» هذا إلى وجود هذه الأبيات في نسخة شرح شيخه التي كانت موجودة لديه حيث يقول:

«وسقطت هذه الأبيات التسع من قوله: [**لما شكت وقعة البطحاء**... إلى هنا] في روايتنا عن العثماني عن الوادي آشي الذي نقلت نسختي من خطه وفي غيرها. وثبتت في بعض النسخ، وعلى ذلك شرح شيخنا أبي الوليد ولذلك ذكرتها هنا. ثم أخبرني صاحبنا الفقيه القاضي الحاج الخطيب أبو عبد الله محمّد بن مرزوق العجيسي أن ناظمها هو الشيخ الفقيه الكاتب أبو الحسن علي بن الجياب الأندلسي ـ رحمه الله ـ»[24].

---

(20) انظر: م. س: 1.

(21) انظر: م. س: 2 ـ 3.

(22) انظر: م. س: 3.

(23) أضيفت تسع أبيات إلى قصيدة البردة وتقع بين قوله:

بِعَارِضٍ جَادَ أَوْ خِلْتُ البطاح بِهَا سَيْبٌ مِن اليَمِّ أَوْ سَيْلٌ من العَرِمِ

وقوله:

دَعْنِي وَوَصْفِي آيَاتٍ لَه ظَهَرَتْ ظهور نَارِ القِرى ليلاً عَلَى عَلَمِ

وانظر في ذلك: مختصر الجادري، ص31 ـ 33.

(24) انظر: م. س: 33.

فمما أفادنا به الجادري في «مختصره»: أن النسخة الموجودة لدينا من شرح أَبي الوليد بن الأحمر لم تضف إليها ما أضيف إِلى غيرها من أبيات ليست من البردة، وأنّها ليست النسخة التي كانت بين يدي الجادري.

كما أفادنا أيضاً أن شرح شيخه ابن الأحمر كان أول شروح البردة، و«أنه لما أخذ في شرحه بدأ أناس آخرون من أهل بلده يشرحونه»[25].

وفي آخر هذا المختصر نجد تاريخ الفراغ من تأليفه وذلك «ليلة الخميس منتصف جمادى الثانية عام 797هـ»[26].

وهذا المختصر يحتاج إِلى أكثر من وقفة نظراً لما يحتويه من علوم ومعارف جديرة بالدرس والتمحيص.

وصف مخطوطة أَبي الوليد:

تقع هذه النسخة فيما يقارب (140) صفحة من الحجم المتوسط، وسطورها باطراد ثلاثة وعشرون سطراً في كل صفحة ما عدا الصفحة الأخيرة. كتبت بخط مغربي واضح لولا ما يعتورها من بتر ومحو ناتج عن خروم، إذ يصعب على قارئها تلمس بعض حروفها، وخاصة بعض أبياتها الشعرية.

ونقرأ في أولى صفحاتها بعد البسملة والتصلية:

«قال الرئيس أَبو الوليد إسماعيل ابن الرئيس أَبي الحجاج يوسف ابن السلطان القائم بإذن اللّه أَبي عبد اللّه محمّد ابن الأمير أَبي سعيد فرج بن الأمير أَبي الوليد إسماعيل ابن الأمير أَبي الحجاج يوسف الشهير بالأحمر ابن السلطان المنتصر باللّه أَبي بكر بن محمّد بن نصر الخزرجي الأَندلسي ـ رحمه الله ـ»[27].

وقد كتبت هذه العبارة بخط بارز، وهي تدل على صحة نسبة الكتاب إِلى

---

(25) انظر: م. س: 1، وأيضاً ما كتبه د. علي لغزيوي في مقاله: «شرح البردة» لأَبي عبد اللّه الأليري، منهجه وقضاياه النقدية والبلاغية: ص: 167 من مجلة المناهل، ع: 52/ 1996.

(26) انظر: مخ المختصر، ص: 53.

(27) انظر: شرح أَبي الوليد: ورقة 1أ.

مؤلّفه، ونسبة أَبي الوليد إِلى ملوك وأمراء بني الأحمر، كما تشير إِلى أن النسخة كتبت بعد وفاة المؤلّف، نستشف ذلك من خلال قول الناسخ: «وقال المؤلّف رحمه الله».

ونقرأ بعد ذلك قوله: «الحمد لله الذي [جمل][28] بالآداب من شمخ أنف ذكائه وارتفع، وجعل النظم للإنسان حياة باقية بعد أن تقضّى أجله وانقطع، نحمده جل اسمه حمداً كثيراً على ما أعطى ومنع، ونشهد ألا إله إِلاَّ الله وحده لا شريك له شهادة تذهب عنا الفرق والفزع، ونشهد أن محمّداً عبده ورسوله الذي جعله نوراً مبيناً فسطع...»[29].

أما آخر المخطوطة فهو مبتور ضاع منه شرح بعض الأبيات إذ يقف عند شرح البيت التالي:

يا نفس لا تقنطي من زلة عظمت إن الكبائر في الغفران كاللمم

ومن ثم لم نعرف لهذه النسخة تاريخ نسخها، ولا ناسخها، لضياع صفحات عدة، ونجد بآخر ورقة قوله:

«وقد قدمنا في هذه المسألة ثلاثة أعاريب. **الأول**: الرفع، فقيل: على عطف البيان، أَو البدل، أَو الصفة، والنصب على التمييز أَو الحال. وهو ضعيف لعدم الاشتقاق، والخفض على الإضافة وهو أحسن الأوجه، وهذا كله قد تقدم فعله، وفّقني الله وإيّاكم إِلى الحق والتحقيق، وإِلى نهج الصواب والتوفيق، وجعل هذا كله خالصاً لوجهه الكريم، ولا حول ولا قوة إِلاَّ بالله العلي العظيم، وصلّى الله على سيدنا محمّد وآله وصحبه وسلّم تسليماً كثيراً إِلى يوم الدين، والحمد لله رب العالمين.

الحمد لله تملك هذا الكتاب بالشراء العبد المذنب الخاطىء المسرف على نفسه الراجي رحمة ربه». ثم يضع توقيعاً ممزوجاً باسمه لم أتمكن من قراءته.

والملاحظ أن هذه الورقة الأخيرة لا تحمل رقماً كغيرها من الأوراق. كما

---

(28) هذه اللفظة غير واضحة بالأصل وما أثبتناه استقيناه من المعنى.

(29) انظر: شرح أَبي الوليد: ورقة: 1أ.

أن الورقة التي قبلها يعمها بياض وبعض الدوائر الفارغة، وذلك يحملنا على الشك في نسبة هذه الورقة إلى مخطوط أبي الوليد، وهذا لا يتم القطع فيه إلاّ بوجود نسخ أخرى لهذا المخطوط.

تسمية الشرح:

يذكر مؤلّفه أنّه قد سمّاه «استنزال الفرج بعد الشدة في شرح قصيدة البردة». والحقيقة أن قصيدة البردة ظلت مطمحاً لحصول الفرج، ومصدراً لوقوع البركة، فالتوسّل بالبردة كان أمراً شائعاً قديماً وحديثاً، ولقد ذكر أبو الوليد في مقدمة شرحه: «أن هذه القصيدة بركاتها كثيرة، وهي بذلك مشهورة، فتقرأ عند طلب الحاجات ونزول المهمات»[30] تأكيداً لفضلها، وسعياً لبلوغ المقصود بها.

ومما ذكره أيضاً في حصول فضلها قوله: «ورأيت أن لهذه القصيدة بركة عظيمة وذلك أني لما نسختها في كتابي: «زهر البستان ومورد الظمآن»[31] أردت أن أقابلها مع الأصل الذي نسختها منه، فسرت إلى سماط شهود فاس، فوجدت الطالب العدل أبا العباس أحمد بن محمّد البادسي، فقلت له: إني أريد أن أقابل معك هذه القصيدة المباركة. فقال لي: أنا أرغب من الله ـ عزّ وجل ـ في ساعتنا هذه أن يعطيني أربعة دراهم، فإني محتاج إليها، ولا عندي اليوم شيء أقيم به حالي، فأخذ القصيدة في يده، واشتغل يقابلها معي. فوالله العظيم ما قرأ منها نحو العشرة أبيات حتى وقف عليه رجل فقال له: اكتب لي عقداً فكتبه، فأعطاه درهمين صغيرين فقال لي: قد أعطاني الله درهمين من الذي تمنيت عليه سبحانه ببركة هذه القصيدة، فقلت له: وأنا أرجو الله تعالى أن يتم لك مرغوبك في هذه الساعة ببركتها، وأخذنا في المقابلة، وإذا برجل آخر أتاه فقال له: اكتب لي عقداً، فكتبه له، فأعطاه درهمين فكملت الأربعة التي طلب من الله تعالى ببركة هذه القصيدة»[32].

---

(30) م. س: ورقة/ 2ب.

(31) انظر: م. س: ورقة: 3أ، والذي تجب الإشارة إليه أن هذا الكتاب لم تشر إليه المصادر التي ترجمت أو تحدثت عن مؤلفات أبي الوليد.

(32) م. س: ورقة: 3ب.

وفي هذا ما يدل على ما كان يعتقده أَبو الوليد من حصول النفع والبركة بهذه القصيدة، كما يدل على كساد سوق العدول في تلك الأيام، فلقد «كان الرجل منهم يقعد بحانوته اليومين والثلاثة، فلا يجد من يستكتبه فيها، فيهبط منه إِلى داره، وهو صفر الراحة من الدراهم»[33] ولذا كان التوسل إِلى الله بهذه القصيدة مما يستنزل الفرج بعد الشدة، وقضاء الحاجة.

سبب تأليف الشرح:

بادىء ذي بدء تجب الإشارة إِلى أن الاحتفاء بقصيدة البردة جاء نتيجة لما كان عليه عصر بني مرين من اهتمام بالقصائد المولدية عامة[34]، وبقصيدة البردة خاصة، إذ كانت تنشد في المحافل والمواسم، ولما «كان يقوم به بعض الأدباء المغاربة من تذييل أَو شرح على هذه القصيدة... ويبدو أن مرد العناية بهذه المنظومة إِلى ما صار لها آنذاك من مكانة بين منشدات الحفلات المولدية... كما كانت لها شهرة عندهم بين الخاصة والعامة... ويقدم البعض نماذج من اهتمامات بعض سلاطين بني مرين بالبردة، وفيهم أَبو عنان الذي كان يرغب في قراءتها بالمواسم والمحافل»[35].

ومن ثم فقد ولع الناس من مختلف الفئات بهذه القصيدة، ويبدو أَن ولع أَبي الوليد بها كان حافزاً إِلى شرحها، وأن ذلك كان بعد إمعان وتأمّل وتصفح لأبياتها وتفهم لمعانيها: «وبعد فإني لما تصفحت القصيدة العظيمة الموسومة بالبردة في مدح خير عدة أخذت في شرح لغاتها ومعانيها، وسبك إشارتها ومبانيها»[36]. إذ رأى أن هذه الطريقة الأدبية «قد ذل عزيزها، وشيب بالهوان نضارها... وامْتُهِنَ مصونها، وقطعت أصولها وغصونها، وكسد سوقها، وجذم رئيسها وسوقها»[37]... فنادى «هل من يجير سوقها، ويغرس من الفخر

---

(33) انظر: م. س: ورقة: 3ب.

(34) انظر: ورقات عن الحضارة المغربية، ص: 265 ـ 281.

(35) انظر: م. س: 277.

(36) و(37) انظر: شرح أَبي الوليد: ورقة: 1 ب ـ 2أ.

بها روضاً أريضاً»[38]... «فقيل: أي الوزير الأنجد... فطرزه باسمه، وكان الشرح من الكتب المهداة إلى أولي الأمر، واسم هذا الوزير أبو يحيى بن مجاهد غازي بن الكاسر الورتاجني «الذي شمخ في الوزارة آنفاً، وفتق رتق المكارم... فخر الحروب والمحارب، وقامع الملحد والمحارب، المطلق عنان الجود، المطبق على أفضاله وفضله ألسنة الوجود... الذي لا يخيب من أمله، ولا يطرد عن حمى مجده من أم له... رأيت أن أجمع كتاباً أطرزه باسمه، وأجعل ذكره الطاهر روحاً لجسمه، وأخدم به حضرته العلية»[39]، وهكذا نرى أن أبا الوليد قد خلع حلة من الأوصاف على الوزير الورتاجني، مادحاً إيّاه بالجود والكرم، وواصفاً له بالشجاعة والقوة «أبقاه الله لإيالة المسلمين عضداً قوية، كما جعله لحماية الدين والدنيا ذمة ملية...»[40].

ويبدو من خلال ذلك أن أبا الوليد كان يرغب في العطاء لقلة ذات اليد، وهو ما جعله يعيش في ضنك، فأسرع بتقديم شرحه إلى هذا الوزير مبيناً قدرته على التأليف في هذا النوع، «فتم شرحي والحمد لله على ما يرضي النفوس، ويبتهج بسماعه والنظر فيه الرئيس والمرؤوس»[41].

تلك كانت الأسباب التي ألّف لأجلها هذا الشرح، وكما لاحظنا فلقد كان هذا التأليف من الكتب المهداة إلى أولي الأمر على عادة أهل الأندلس في ذلك حتى تكتسب تآليفهم شهرة، ويرتبط اسمهم باسم الحاكم أو الوزير أو غيرهما. وكما ذكر أبو الوليد سبب إنشائه لهذا الشرح فلقد ذكر سبب إنشاء قصيدة البردة. «قال ناظمها: إن سبب إنشائي لهذه القصيدة أنه أصابني خلط فالج أبطل نصفي ولم أنتفع به، ففكرت أن أعمل قصيدة في مدح النبي - ﷺ - وأستشفع بها إلى الله - تعالى - فأنشأت هذه القصيدة فتمت بحمد الله»[42].

---

(38) انظر: شرح أبي الوليد: ورقة: 1 ب - 2أ.
(39) انظر: م. س: ورقة 1 ب - 2أ.
(40) انظر: م. س: ورقة 1ب.
(41) انظر: م. س: ورقة 2أ.
(42) انظر: م. س: 2أ.

سند أبي الوليد في رواية قصيدة البردة:

وكعادة أهل الأَندلس في ذكر سندهم في الرواية فلقد ذكر أَبو الوليد في مقدمة هذا الشرح سنده في رواية البردة فقال: «قرأتها على شيخنا الفقيه القاضي المحدث أَبي القاسم عبد الرحمن السجلماسي الشهير بابن الحفيد بن محمّد بن عبد الرحمن بن عبد اللّه ابن الإمام القاضي أَبي الوليد محمّد بن الحفيد ابن الفقيه القاضي ابن القاسم أَحمد ابن الإمام القاضي أَبي الوليد بن رشد الأموي بفاس وأجازني فيها. وذلك بالمسجد الشهير مسجد زنقة حجامة بتاريخ أواخر ذي الحجة من عام سبعة وستين وسبعمائة عن الإمام القاضي العالم، الحبر، قاضي قضاة الشافعية عز الدين ...بن جماعة الكناني الشافعي عن ناظمها الإمام شرف الدين البوصيري ـ رحمه الله ـ»[43].

وفي هذا إشارة إِلى الإجازة التي منحها الشيخ عبد الرَّحمن بن محمّد... ابن رشد الشهير بابن الحفيد لأَبي الوليد بن الأحمر بأحد المساجد الشهيرة بفاس مع تحديد سنة الإجازة.

منهج أَبي الوليد في الشرح:

لم يذكر المؤلّف منهجاً معيناً أَو طريقة خاصة سيتبعها في شرحه، لكن وباستقراء الشرح نستطيع القول بأن المؤلّف كانت له طريقة تخصّه في تحليل القصيدة وشرح أبياتها، فبعد المقدمة التي وطأ بها، والتي تناولت التعريف باسم المؤلّف، وسبب التأليف، ولمن ألّف الشرح، والغاية من ذلك، مع تعريف بالبوصيري، وذكر فضائل البردة... ينصرف مباشرة إِلى تحليل القصيدة، وشرح أبياتها بادئاً بأول بيت فيها، فيشرح مفرداتها، وموقع إعراب بعض كلماتها، مبيناً ما تنصرف إليه من المعاني، وما تدل عليه من الأماكن والمواقع، مستدلاً في ذلك بالآيات القرآنية[44]، والأحاديث النبوية[45]، والشواهد

---

(43) انظر: م. س: 3 ب ـ 4أ.

(44) هذه الشواهد القرآنية شملت معظم صفحات الشرح، انظر ورقة: 6 ـ 9 ـ 10 ـ 11 ـ 12 ـ 16 ـ 19 ـ 21 ـ 22 ـ 23 ـ 26 ـ 27 ـ 28 ـ 29 ـ 31 ـ 32 ـ 33 ـ 35 ـ 36 ـ 39 ـ 40 ـ 43 ـ 44 ـ 45 ـ 48 ـ 50 ـ 54 ـ 56 ـ 58 ـ 59 ـ 61 ـ 63 ـ 65.

=

الشعرية، والأخبار الدينية، والتاريخية، والأدبية.

فالآيات القرآنية التي يستدل بها في تقرير معنى لفظ من الألفاظ كثيرة ومتعددة تأتي في صفحات متعددة من الشرح، وهو لا يكتفي أحياناً بالآية الواحدة شاهداً على معنى من المعاني بل يتعداه إلى ثلاث أو أربع آيات، وقد يدفعه الاستطراد والتقصّي إلى عرض سبب نزول بعضها[46]. وكما استدل بالآيات يستدل بالأحاديث النبوية الشريفة وهي كثيرة في هذا الشرح، ويتعرّض من خلالها إلى جوانب من السيرة النبوية والقصص الدينية، شارحاً للفظ المراد، محللاً لمراميه، مستدلاً عليه بما يوافقه في الحديث. فـ«الكَتَم» مثلاً: «نبت يسود الشعر: وقد ورد في الحديث أن النبي ـ ﷺ ـ كان يخضب بالحناء والكتم»[47].

ومن منهجه في الشرح الإتيان بالشواهد الشعرية وهي كثيرة متنوعة تفوق مائة وعشرين شاهداً لشعراء مختلفين قدامى ومحدثين كامرىء القيس[48] والنابغة[49]، وزهير بن أبي سلمى[50]، والأعشى[51]، وطرفة[52]، والخنسَاء[53]، وأمية بن أبي الصلت[54]، ولبيد[55]، وأبي الأسود الدؤلي[56]،

---

(45) كما أن الأحاديث شملت صفحات عدة، انظر: 6 ـ 9 ـ 10 ـ 11 ـ 13 ـ 16 ـ 19 ـ 26 ـ 27 ـ 32 ـ 33 ـ 45 ـ 48 ـ 49 ـ 50 ـ 54 ـ 60 ـ 66.

(46) انظر: م. س: 11 ب ـ 12أ، في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ عَنَّ نَفْسِهِۦٓ إِلَىٰ عُنُقِكَ﴾ [الإسراء: 29]. فقد أشار إلى ما ذكره أبو إسحاق الثعالبي في سبب نزولها، وقصة نزع الرسول ـ ﷺ ـ لقميصه وإعطائه لأم الصبي، وبقائه عرياناً.

(47) م. س، ص: 6ب.

(48) انظر: م. س: وقد ورد ذكره في هذا الشرح عدة مرات في: 4 ب، 7أ، 45أ، 47أ.

(49) انظر: م. س: 4 ب ـ 30أ.

(50) انظر: م. س: 6ب.

(51) انظر: م. س: 65ب.

(52) انظر: م. س: 4أ.

(53) انظر: م. س: 7أ.

(54) انظر: م. س: 29أ.

(55) انظر: م. س: 45أ.

(56) انظر: م. س: 5ب.

والبحتري[57]، والمتنبي[58]، والحريري[59]، والمعري[60]، وذي الرمة[61]، ويحيى الغزال[62]، وابن هانىء الأَندلسي[63]، وصفوان بن إدريس التجيبي الأَندلسي[64]، وأَبو المطرف أَحمد بن عميرة المخزومي الأَندلسي[65]، وغيرهم.

وأَبو الوليد جعل من نهجه في الشرح عدم الالتزام بالشاهد الواحد للمسألة الواحدة بل يتعداه إِلى ثلاثة أَو أربعة شواهد لشعراء مختلفين، وقد يصل عدد الشاهد الواحد إِلى ثمانية أبيات[66]، وهو ما يضطره أحياناً إِلى شرح ألفاظ هذه الأشعار[67]، ومن ثم فقد جاء الشرح روضة من الشعر تعكس مدى ثقافة وموسوعية المؤلّف، وقدرته على تبسيط ما صعب، وتوضيح ما غمض، وفك ما خفي. «فمزجْتَ: خلطت. ومزج الشراب: خلطه، قال الحسن بن رجاء يشبه اختلاط الدمع بالدم:

فآه من الأحزان إن أسفر الضحى وفي كبدي من حرهن حريق
مزجت دماً بالدمع حتى كأنما يذاب بعيني لؤلؤ وعقيق»[68]

وإجراء الشرح عنده كان يقوم على أدوات أخرى منها ترجمته لكثير من الأعلام[69] وتقديم جملة من أخبارهم وسيرهم، وهذه التراجم قد تأتي طويلة

---

(57) انظر: م. س: 5ب.
(58) انظر: م. س: 46ب.
(59) انظر: م. س: 35ب.
(60) انظر: م. س: 47ب.
(61) انظر: م. س: 21أ.
(62) انظر: م. س: 46أ.
(63) انظر: م. س: 8ب.
(64) انظر: م. س: 35أ.
(65) انظر: م. س: 61أ.
(66) انظر: م. س: 19 أب.
(67) م. س: 19أ في لفظ الغطريف مثلاً.
(68) م. س: 4أ.
(69) إِلى جانب حديثه عن حياة الرّسول وسيرته خلال شرحه أبيات البردة فإن له تراجم لأعلام =

مسهبة[70]، وقد تأتي مختصرة[71].

إلى جانب التراجم قدم مجموعة من القصص الدينيّة والأخبار التاريخية كقصة أبرهة الحبشي عند نزوله بمكة ولقائه عبد المطلب[72] وقصة يونس ـ عليه السَّلام ـ[73]، وقصة إسماعيل الذبيح[74]، وقصة نزول الوحي بغار حراء[75]، وقصة الإسراء والمعراج[76].

كما أرّخ للطوائف والفِرق في الإسلام[77] عارضاً جملة من آرائهم ومواقفهم التي نعتها بالفاسدة وعدها في اثنتين وسبعين فرقة «الذين أخبر رسول الله ـ ﷺ ـ أنّهم كلهم في النار، وإخباره بهم معجزة من معجزاته ـ ﷺ ـ لأنّه أخبر بغيب فخرج كذلك»[78].

ولقد كان لفظ «مُعارض»[79] حافزاً لأَبي الوليد ليذكر أسماء بعض الشعراء

= آخرين كإياس بن معاوية، ورقة: 19أ، مكرر، وكابن عباس: 19أ مكرر، وأبرهة الحبشي: 23 ب ـ 24أ، والمتنبي: 46 ب، وغيرهم.

(70) كما في ترجمة أبرهة الحبشي وعرض سيرته وغزواته. انظر: م. س: 23ب ـ 24أ.

(71) كما في ترجمة ابن عباس ـ رضي الله عنه ـ حيث يقول عنه: «كما أن ابن عباس ـ رضي الله عنه ـ مشهور بالألمعية وهي الذكاء، وحسن الظن، والألمعي الذي لا يخطىء ظنه، وهو الذي ينظر إلى الشيء على بعد فيعرفه ويحقّقه كأن يرى إنساناً على بعد فيقول: هو فلان فيخرج كذلك، فالفراسة فيما قرب، والألمعية فيما بعد» انظر: م. س: 19أ مكرر.
وكقوله في أَبي بكر ـ رضي الله عنه ـ والصدّيق لقب لأَبي بكر، واسمه عبد الله بن أَبي قحافة، واسم أَبي قحافة عثمان بن عمر بن كعب...، بن مرة بن لؤي... وفي مرة يجتمع نسبه مع سيدنا رسول الله ـ ﷺ ـ... وأما الصدّيق فإنه اسم سماه به رسول الله ـ ﷺ ـ لما رجع...» انظر: م. س: 31ب.

(72) انظر: م. س: 24أ.

(73) انظر: م. س: 26ب ـ 28أ.

(74) انظر: م. س: 27أ.

(75) انظر: م. س: 32ب.

(76) انظر: م. س: 53ب ـ 54أ.

(77) انظر: م. س: 50أ ب ـ 54أ، حيث ذكر جملة من أخبار الفرق التي ظهرت في الإسلام بأساميهم ومعتقداتهم وآرائهم المتباينة.

(78) انظر: م. س: 53أ.

(79) هذا اللفظ وارد في بيت البردة: [ردتْ بلاَغَتُها دَعْوَى مُعَارِضِها].

الذين عارضوا القرآن في بلاغته كالمتنبي[80]، وأبي العلاء المعري[81]، ويحيى الغزال[82]، «فممن رام معارضته يحيى بن حكم الأَندلسي ويعرف بالغزال بتخفيف الزاي، وهو من قدماء أهل الأَندلس، ومولده في سنة ست وخمسين ومائة في إمرة عبد الرحمن . . . بن هشام وهو عبد الرَّحمن الداخل، وكنيته: أَبو المطرف. ومات سنة خمسين ومائتين، وله أربع وتسعون سنة فتداركه الله سبحانه بلطفه، وهداه إلى الرجوع عن معارضة القرآن، فرجع عن ذلك وتاب. ووصفه بعض مؤرخي الأَندلس فقال فيه: يحيى بن حكم المعروف بالغزال، رئيس، كثير القول، مطبوع النظم في الحكم والجد والهزل، وهو مع ذلك جليل القدر في نفسه ومنزلته عند أمراء بلده.

قال القاضي عياض: كان يحيى بن الحكم الغزال أبلغ أهل الأَندلس في زمانه، فحكي أنه رام شيئاً من معارضة القرآن، فنظر في سورة الإخلاص ليحذو على مثالها، وينسج على منوالها، قال: فاعترتني خشية ورقة، ودهشة حملتني على التوبة»[83] . . .

ولفظ «البلاغة»[84] كان دافعاً له ليؤرّخ أقوال بعضهم[85] في البلاغة: ماهيتها، وأضربها، والفصل بين البلاغة والفصاحة[86]، وغرضه التعريف بلفظها

---

(80) انظر: شرح أَبي الوليد: 47أ ب.

(81) انظر: م. س: 47ب.

(82) انظر: م. س: 46أ.

(83) انظر: م. س: 46أ، ولقد أورد بعض النصوص في ذلك كقول المتنبي في معارضة القرآن حيث تنبأ: «والنجم السيار، والفلك الدوار، والليل والنهار، إن الكافر لفي أخطار، امض على سننك، واقف آثار من كان قبلك من المرسلين، فإن الله قامع بك زيغ من ألحد في دينه، وضل عن سبيله» انظر: م. س: 47.

(84) الوارد في بيت البردة الذي سجلنا شطره في هامش رقم 79 من الصفحة السابقة.

(85) كأَبي الحسن علي بن عيسى الرماني، انظر: م. س: 43ب، وأَبي علي بن رشيق صاحب العمدة، م. س: 44 أ ب، كما استعرض رأي ابن المقفع والكندي في تعريف البلاغة. . . انظر: م. س: 44أ،ب.

(86) انظر: م. س: 43ب، إذ يقول: «قد اختلف في التعبير عن البلاغة والفصاحة، فقيل هما بمعنى واحد أو بينهما فرق. فقيل: البلاغة مخصوصة بالإيجاز والفصاحة تعم الإيجاز والإطناب. . .».

ومدلولها من خلال الاعتماد على أقوال بعض علماء البلاغة كابن رشيق والرماني وغيرهما. وذلك غاية في الاستطراد، والتقصّي الذي نعت به الشارح الأَندلسي بصفة عامة.

تلك كانت منهجية أَبي الوليد في هذا الشرح، قامت على بحوث متعددة في معارف شتى، إذ لم يكن الشرح خالصاً في العربية لغة ونحواً، بل كانت اللغة وسيلة يتوسل بها إِلى علوم أخرى جعلت من الشرح مصدراً يُعرفنا على علوم ومعارف وثقافة أعلام المغرب والأَندلس في هذه الفترة.

مصادر أَبي الوليد في الشرح:

يضم الشرح مصادر مختلفة على الرغم من قلّتها، ذلك أن المؤلّف كثيراً ما يغفل عن ذكر مصادره، إذ يكتفي بذكر محفوظاته، ومروياته، ويعد نفسه مصدراً فيقول: «قال المؤلف»[87]، أَو يكتفي بالإشارات المبهمة كقوله: «رأيت في بعض الطرر»[88]... أَو «رأيت في بعض التعليقات»[89]، وأحياناً يذكر اسم المؤلّف دون تعيين مؤلّفه كقوله: «قال الأستاذ أَبو الحسن بن أَبي الربيع»[90]، أَو «أَنشد سيبويه»[91]، أَو «قال سيبويه»[92].

وأحياناً أخرى يصرّح بالمصدر وصاحبه كما في قوله: «قال ابن العربي في القانون»[93]. أَو «قال ابن الجوزي في تلبيس إبليس»[94]. أَو «قال الأستاذ أَبو إسحاق إِبراهيم بن علي الفهري البيونسي بالباء، المثناة في كنز الكتاب»[95].

كما ضم هذا الشرح بعض تآليف أَبي الوليد، وهو مؤلّفه: «زهر البستان

---

(87) انظر: م. س: 46ب في ترجمته للمتنبي، و67أ في حكاية زهير مع هرم بن سنان.
(88) انظر: م. س: 60ب.
(89) انظر: م. س: 62ب.
(90) ـ (91) ـ (92) م. س: 11أ.
(93) م. س: 49ب.
(94) م. س: 51أ.
(95) م. س: 61أ.

ومورد الظمآن»[96] الذي أشرنا إليه سابقاً في هذا البحث، وذكرنا عنه أن كتب التراجم لم تشر إليه.

وبتتبع هذا الشرح سنلحظ أن مصادر أَبي الوليد لم تقف عند نوع معين بل شملت كتب اللغة وصحاح العربية، وكتب الأدب والتفسير، والسيرة والحديث مما أضفى على المؤلّف حلة من العلوم والمعارف.

الجانب اللغوي في شرح أَبي الوليد:

لقد كان ولع أَبي الوليد بقصيدة البردة من أهم الأسباب الداعية إِلى شرحها ـ كما ذكرنا سابقاً ـ وإذا كان المؤلّف قد قدّم في شرحه هذا مرويات كثيرة مختلفة المشارب والمقاصد تضمنت علوماً ومعارف مختلفة فإن هذا الشرح لم يخل من تبسيط لألفاظ أبيات البردة تارة بشرحها اللغوي، وأخرى بتوضيح مواضع إعرابها، والبحث عن أصلها، واشتقاقها، ومراحل انتقالها من لغة إِلى لغة، وتعرّف موازينها معتمداً في ذلك على ما اكتسبه من مهارة لغوية جعلته قادراً على الشرح والمقابلة والتقصي، فكان اعتماده على هذه المهارة أكثر من اعتماده على المصادر والمعاجم اللغوية، إِلاَّ أن هذا لم يمنعه أحياناً من ذكر بعض المصادر، من ذلك قوله في حديث عن النبي ـ ﷺ ـ: «بينما أنا نائم أوتيت بمفاتيح الأرض مثلت في يدي. قال ابن الأنباري: أي ألقيت في يدي. وقال ابن الأعرابي: صبت. قلت: وهما متقاربان حكاه أَبو عيسى الهروي في كتاب الغريبين»[97].

وفي لفظ «إِن تَتْلُها» من بيت البردة:

إن تتلها خِيفَةً مِنْ حَرِّ نَارِ لظى أطفأت نار لظى من وردها الشَّبِم

قال: «إن تتلها: أي تقرأها. يقال: تلا يتلو تلاوة. قال ابن القوطية: تلوت القرآن تلاوة: اتبعت بعضه بعضاً»[98].

---

(96) م. س: 3أ.

(97) انظر: م. س: 27ب.

(98) م. س: 27ب.

وفي لفظ «النسم» الوارد في بيت البردة:

فهو الذي تم معناه وصورته ثم اصطفاه حبيباً بارىء النَّسَم

قال: «وبارىء النسم: هو الله سبحانه، والنَسم: جمع نسمة، وهي نفس الإنسان. قاله الخطابي»[99].

ومن خلال ما أوردناه نجده قد اعتمد على جملة من علماء هذه الصناعة كابن الأنباري[100]، وابن القوطية[101]، وابن الأعرابي[102]، وكالأصمعي[103] وابن دريد[104]، وسيبويه[105]، وابن أبي الربيع[106]، وغيرهم في مواضع أخرى.

كما أن أبا الوليد لم يهتم بتلك التفريعات المذهبية التي ترجح هذا المذهب عن ذاك، ولا بالعلل والزيادات، والإغراق في القياس والسماع إلاَّ في النادر على الرغم من أنه تتبع ألفاظ البردة تحدوه الرغبة في شرح لغاتها ومعانيها وسبك إشارتها ومبانيها، ومن ثم فقد كثر اهتمامه باللفظ، ودلالته، واستعمالاته المتداخلة فاعتنى: بالمشترك اللفظي في الكثير من الألفاظ، فكلمة «الوحي» من بيت البردة:

لا تنكر الوحيَ من رؤياه إن له قلباً إذا نامت العينانِ لم يَنَم

تعني في «اللغة: الإلهام، يقال: أوحى ووحى. قال الله تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ﴾[107]. والإيحاء ينطلق في اللغة على معان: الإلقاء بسرعة في خفية... والوحي أيضاً الإشارة، والوحي أيضاً الكتابة، والوحي أيضاً

---

(99) م. س: 48ب.
(100) م. س: 27ب.
(101) م. س: 48ب.
(102) م. س: 16أ.
(103) م. س: 4ب/ 7ب/ 30أ.
(104) م. س: 66ب.
(105) ـ (106) م. س: 11أ.
(107) سورة النحل، آية: 68.

الوسواس، ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ [108]﴾[109]. . . ويضيف في شرح هذا اللفظ في موضع آخر[110]: «والوحي مصدر وَحَى يحي إذا كتب، وأوحى إليه: بعثه، وأوحى إليه: ألهمه، ووَحَا لغة فيه: وأصل الوَحَى: العجلة، والوُحِي: السيد وليس من هذا».

وقد كان اهتمام أَبي الوليد بالمشترك اللفظي نابعاً عن رغبته في اختيار الدلالة في أقصى معانيها، واختيار المناسب منها والملائم.

كما اعتنى في شرحه بالمترادف، وسعى إلى تثبيته إما عن طريق الأمثال أو الحرص على الأضداد الموجودة، من ذلك قوله في لفظ «الفرق» من بيت البردة:

طارت قلوب العِدا من بأسهم فرقا فما تفرق بين البَهم والبُهم

«والفَرَق: الخوف. فرِق إذا خاف ـ بكسر الراء ـ فرقاً ـ بفتحها ـ فهو فرق على القياس. ويقال: فرقت منه، ولا يقال: فرقته. قاله في الصحاح.

قال: ويقال: امرأة فروقة، ورجل فروقة ولا جمع له.

وفي المثل: رب عجلة تَهَب ريْثاً، ورب فروقة يرعى ليلا[111]»[112].

وفي لفظ العلم من بيت البردة:

كفاك بالعلم في الأمي معجزة في الجاهلية والتأديب في اليُتُم

يقول: «العلم نقيض الجهل. علم يعلم علماً، والأمي هو النبي ـ صلى الله عليه وسلّم ـ، والأمّي في اللغة الذي لا يقرأ ولا يكتب. . .».

---

(108) سورة الأنعام، آية 121.

(109) انظر: شرح أَبي الوليد: 32أ.

(110) انظر: م. س: 33ب.

(111) في مجمع الأمثال: 1/ 294، ط. 1374/ 1955، ورد المثل كالتالي: «رب عجلة تهُب ريثاً» قاله أبو زيد، وريثا: نصب على الحال في هذه الرواية، أي تهب رائثة، فأقيم المصدر مقام الحال، وفي الرواية الأولى (تهَبُ ريثا): نصب على المفعول به «ورب فروقة يدعى ليثاً، ورب غيث لم يكن غيثا» مثل يضرب للرجل يشتد حرصه على حاجة ويخرق فيها حتى تذهب كلها».

(112) شرح أَبي الوليد: 62أ.

قال ابن عطية: الأمّي في اللغة هو الذي لا يقرأ ولا يكتب، نسب إلى الأم لأنه نجل أمه من عدم الكتابة لا نجل أبيه لأن النساء ليس من شأنهن الكتابة قاله الطبري»[113].

وفي لفظ «الناموس ـ وذلك عند بلوغ النبي الدعوة، وإتيانه ورقة بن نوفل، وإخباره خبره، فقال ورقة: والله هو الناموس الذي أنزل على موسى ـ يعقب أبو الوليد على ذلك في شرحه لبيت البردة:

وذاك حين بلوغٍ من نبوته فليس ينكر فيه حال محتلم

قال: «والناموس فاعول، وهو موصل الخير، ومقابله: الجاسوس، وهو موصل الشر: فصاحب سر الخير يقال له: ناموس، وصاحب سر الشر يقال له: جاسوس، وناموس الرجل: سرّه»[114].

وقوله في لفظ «النور» من بيت البردة:

وكل آي أتى الرّسل الكرام بها فإنما اتصلت من نوره بهم

«والنور ضد الظلمة، والظلم: ج ظلمة وهي عدم النور»[115].

كما اهتم بتحديد لغات بعض الألفاظ دون التعليق عليها، ومراده في ذلك توضيح دلالتها، مفضلاً لغة القرآن على غيرها من ذلك قوله في لفظ «الهدى» من بيت البردة:

إذ قلداني ما تخشى عواقبه كأنني بهما هدي من النعم

«والهدي بسكون الدال المهملة، والتخفيف لغة أهل الحجاز وبها جاء القرآن ﴿حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ﴾[116]. ويقال أيضاً بالتشديد، وهي لغة تميم وبعض قريش، واحده: هَدْية بالتخفيف والتثقيل: ما يهدى إلى بيت الله تعالى من بهيمة الأنعام من بقر وغنم...»[117]. ومن شدة حرصه على تتبع معاني الألفاظ،

---

(113) انظر: م. س: 62ب.
(114) انظر: م. س: 33أ.
(115) انظر: م. س: 18أ.
(116) سورة البقرة، آية: 196.
(117) شرح أبي الوليد: 65ب.

ودلالتها، انصرافه أحياناً إلى شرح كنى وألقاب بعض الأعلام الواردة في شرحه، وإيراد أقوال العرب فيه. ففي لفظ «عتيق» مثلاً يقول:

«وكان أبو بكر يسمى عتيقاً لجماله، وعتاقة وجهه، وحكى أبو عمر المطرزي أنّ العرب تقول لكل شيء بلغ الزيادة في المدح أو الذم عتيق، ومنه العواتق، وهن أحداث النساء وصغارهن»[118]...

ومما اهتم به أبو الوليد في شرحه حرصه على ضبط الألفاظ بكتابة حركاتها التي تلزم الحروف خاصة ما صعب منها، أو ما لا يأتي في صورة واحدة، مبيناً أوجه ضبطها، باحثاً عن إفرادها، وجمعها، ووجوه الدلالة فيها، وهذا وارد في مواطن عدة لا سبيل إلى حصرها. ففي «لفظ» «البهم» من بيت البردة:

طارت قلوب العدا من بأسهم فرقًا فما تفرق بين البَهم والبُهم

قال: «والبهْم: جمع بَهْمة بفتح الباء، وسكون الهاء، وهي ولد الضأن والمعز، والبقر، والجمع: البَهْم وأيضاً البهائم.

البُهم: بضم الباء الموحدة من أسفل، وسكون الهاء، جمع بُهمة، وهو الفارس لا يدرى من أين يؤتى، وقيل: الكتيبة، ورأيت في بعض التعليقات أنه من أسماء الأسد»[119]...

وفي لفظ «بشير» قال: «قال المؤلّف: بشيراً من بشرت الرجل أبشره بضم الشين، ويقال: بتشديد الشين المعجمة، فأبشر على وزن أفعل. وتبشر البشارة بكسر الباء. والبشرى بضمّها: ما بشرت به، والبشارة ما يعطى للبشير عوضاً عما جاء به من البشارة. والفلق: الفجر، والله سبحانه فلقه: أي أبداه، والصبح، والصباح، والإصباح بكسر الهمزة أول النهار، والأصباح بفتح الهمزة، والأمساء كذلك»[120].

---

(118) انظر: م. س: 31ب.

(119) انظر: م. س: 62أ.

(120) انظر: م. س: 33أ.

ومن أسلوب أبي الوليد في تخصيص اللفظ بإحدى دلالاته، وحق الشرع في القطع بوجوب ذلك في معنى من المعاني استدلاله بالشواهد القرآنية، والأحاديث، وأقوال المفسرين، وهذا وارد في صفحات عدة[121] شارحاً ومعلقاً ومستقصياً لكل أوجه الدلالة الواردة، وتخصيص المطابقة بين اللفظ والمعنى المراد تحديده، وذلك كما في لفظ «سرى» من بيت البردة:

سريت من حرم ليلاً إلى حرم كما سرى البدر في داج من الظلم

«قوله: سريت من حرم. يقال: سرى يسري سُرى: إذا سار ليلاً، وكل شيء طرق بالليل فهو سار، والإسراء بالنبي ـ ﷺ ـ حق أجمع عليه المسلمون لا خلاف بينهم فيه إذ قد نطق به القرآن العظيم في قوله تعالى: ﴿سُبْحَانَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا﴾[122]. الآية، وسورة «والنجم»[123] منبئة بذلك أيضاً، وجاءت الأحاديث الصحيحة بالمعراج، ووقع في جميع مصنفات الحديث ودواوينه، وهو مما علم من الدين ضرورة.

قال القاضي ابن عطية في «تفسيره»: قوله تعالى: ﴿أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾ لفظ الآية يقتضي أنه تعالى أسرى بعبده وهو نبيّه محمّد ـ ﷺ ـ[124].

كما استدل على تثبيت دلالة بعض الألفاظ بالحديث الشريف كما في لفظ «الحوض» من بيت البردة:

كأنها الحوض تبيض الوجوه به من العصاة وقد جاءوه كالحُمم

«قوله: «كأنّها الحوض»... الحوض: هو حوض نبيّنا محمّد ـ ﷺ ـ، والإيمان به واجب، والدليل على وجوده: القرآن، والسنّة، والإجماع.

أما الكتاب فقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ﴾[125]. والكوثر: الحوض على أحد التأويلات.

---

(121) أشرنا إلى ذلك سابقاً في ص: 561.

(122) سورة الإسراء، آية: 1.

(123) خاصة الآيات الأولى من السورة.

(124) شرح أبي الوليد: 56أ ب.

(125) سورة الكوثر، آية: 1.

ومن السنّة قوله ـ ﷺ ـ ما بين منبري وقبري روض من رياض الجنّة، ومنبري على حوضي.

واختلف في صفته، فقيل: إنه مسيرة شهر، وقيل: شهران، وقيل: ثلاثة.

وفي بعض الأحاديث كما بين مكّة وبيت المقدس، وقيل ما بين عدن وعمان، وقيل ما بين مكّة وعسفان.

قال عياض: واختلاف هذه الروايات ليس فيه تناقض، لأنه ـ ﷺ ـ لم يلقها على جهة التحديد، وإنما هو على جهة التمثيل والمغاياة وهي جائزة واردة في الكتاب والسنّة، ففي الكتاب إلى مائة ألف أو يزيدون. وفي الحديث: «**من بنى مسجداً ولو كمفحص قطاة بني له قصر في الجنّة**».

وعن أنس لما نزلت سورة الكوثر قال ـ ﷺ ـ: «**أتدرون ما الكوثر، إنه نهر في الجنّة وعدنيه ربي فيه خير كثير**»....

قال الإمام أبو إسحاق الثعالبي في «تفسيره»: أي النهر، وقيل: هو الحوض بعينه، وقد وصف النبي ـ ﷺ ـ حوضه في الكوثر فقال: حصباؤه: الياقوت والزبرجد، والدر، والمرجان، وتربته: المسك الأذفر والكافور، ماؤه: أشد بياضاً من اللبن، وأحلى من العسل، وأبرد من الثلج، يخرج من أصل سدرة المنتهى، عرضه وطوله ما بين المشرق والمغرب، حافاتاه: الزعفران، وقبابه: الدر والمرجان، من دخله أمِنَ من الغرق، لا يشرب منه أحد فيظمأ، ولا يتوضأ منه أحد فيشعث، فيه طيور أعناقها كأعناق الإبل، فقال أبو بكر وعمر: إنها لناعمة؟ فقال ـ ﷺ ـ: آكلها أنعم منها، وفي لفظ آخر: لتزدحمن هذه الأمة على الحوض ازدحام واردات الحمى.

وعن أنس قال ـ ﷺ ـ: «**إن لحوضي أربعة أركان، ركن منها في يدي أبي بكر، وركن في يدي عمر، وركن في يدي عثمان، وركن في يدي علي...**»[126].

---

(126) انظر: شرح أبي الوليد: 48ب ـ 49أ ب.

ونلحظ من هذا الشرح أن أبا الوليد قد أعطى للفظ «الحوض» دلالاته في أقصى حدودها مبيناً معناه، وصفته، وأركانه، وما ورد عنه في الكتاب والسنّة وعند الصحابة وأئمة المسلمين في تحديد مدلول لفظ الحوض.

وإذا كان أَبو الوليد قد أفرد في مؤلّفه للشعر حيزاً كبيراً[127] فإن شواهده منه كانت توضيحاً يسيراً لبعض الألفاظ، وتأدية لبعض المعاني، فإيراده للشعر لم يكن لتوضيح لغة شاذة، أَو قاعدة معينة، أَو فائدة لغوية، وإنما كان لتبسيط اللفظ، وتقريب معناه دون مجاوزة ذلك. ففي لفظ «الشيب» من بيت البردة:

إني اتهمت نصيح الشيب في عذل والشيب أبعد في نصح عن التهم

قال: «الشيب: هو النصيح. فأضافه إِلى نفسه، يعني أنه اتهم نصيح الشيب إذ كان من شأن النصيح ألا يتهم، ولما كانت درجات الناصحين متفاوتة في التهمة والبعد عنها جعل نذير الشيب في التهمة أبعد من غيره...

قال أكثم بن صيفي: الشيب عنوان الموت. وقال الحجاج: الشيب بريد الآخرة. وقال محمود الوراق: الشيب إحدى الميتتين... وقال آخر: من صبا والشيب واخط فالله عليه ساخط... وقال الأديب أَبو جعفر التطيلي[128] من قصيدة في أَبي العلاء بن زهر:

والشيب مما أظن الدهرَ صَحَّفَه معنى من النقص عَمَّاه عن البشر
لو يعلم الأفق أن الشيب منقصة لم تَسْر أنجمه فيه ولم تسِر
وليس للمرء بعد الشيب مقتبل نهاية الروض أن يعتم بالزهر»[129]

وتظهر من هذا الشرح مهارة أَبي الوليد اللغوية، ويتجلى ذلك في اعتزازه بعرض رأيه في عرض مسألة، أَو شرح لفظ، دون الاعتماد على مصدر من

---

(127) أشرنا سابقاً إِلى عدد شواهده الشعرية، ص: 562 من هذا البحث.

(128) انظر: ديوان التطيلي، ص: 50 من قصيدته التي مطلعها:

يفديك كل جبان في ثياب جري نازعته الورد واستأثرت بالصدر

انظر الديوان بتحقيق: إحسان عباس ـ دار الثقافة ـ بيروت، لبنان، ط. 1963.

(129) شرح أَبي الوليد: 6أ ب.

المصادر أَو شيخ من الشيوخ، إذ كثيراً ما يتردد في الشرح «قال المؤلف»[130]، ويأتي ذلك غالباً لتوضيح معنى أَو حل مقفل، ولا يرمي من ورائه إلى عرض موقف خاص، أَو معارضة رأي من الآراء، أَو مخالفته، ومن الغريب ألا نجد في هذا الشرح أسماء علماء اللغة في الأَندلس أَو المغرب على الرغم من جهود الكثيرين منهم في ميدان الدراسات اللغوية والنحوية. وكمثال على ذلك قوله: «قال المؤلف: برأ السقيم يبرَأ ويبرُؤ بفتح الراء وضمّها في المضارع»[131].

وإذا كانت جهود أَبي الوليد في هذا الشرح قد انصبت على دلالة الألفاظ وأصلها وتطورها وأوجه استعمالها، فإن هذا لم يمنعه من الاهتمام ببعض المسائل النحوية والصرفية[132]، وتوضيح وجوه الإعراب فيها دون الدخول في العلل والزيادات، وكمثال على ذلك قوله في حرف «لو» الشرطية من بيت البردة:

لـو نـاسـبـت قـدره آيـاتـه عـظـمـاً أحيا اسمه حين يدعى دارس الرمم

«لو هنا حرف شرط تدل على امتناع الشيء لامتناع ضده، وهذا البيت من مشكلات أبيات هذه البردة العظيمة ومن خفاياها، والذي يظهر لي فيه أنّه كلام خرج مخرج الإغياء والمبالغة في عظم قدره، ومنزلته عند ربّه هي أعظم من كل ما ظهر على يديه من الآيات والمعجزات وإن هي كثرت وتعددت حتى قيل: ما من معجزة أتى بها نبي من الأنبياء إلاّ ولنبينا محمّد ـ ﷺ ـ مثلها أَو أعظم منها، فإن ما خص به من تسليم الحجر عليه، وتكليم الجمادات له، وتسبيح الحصا نظير ما جاء على حد قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ﴾[133] الآية... أي لكان هذا القرآن، لكنه حذف الجواب لدلالة السياق عليه، وكل واحد من الشرط والجواب لم يقع...»[134].

---

(130) انظر: م. س: 14ب ـ 19أ ـ 33أ ـ 39أ ـ 39ب ـ 45ب ـ 50أب ـ 63أب.

(131) انظر: م. س: 39ب.

(132) انظر: م. س: 6ب في إعراب (من) و18أ في إعراب كيف، و33ب في وزن جدعان. و59أ في لفظ الاختراق.

(133) سورة الرعد، آية: 31.

(134) انظر: شرح أَبي الوليد: 16ب.

فلو الشرطية جاء جوابها محذوفاً، وانتفاء الجواب أو امتناعه أدّى إلى امتناع فعل الشرط.

وقوله في لفظ «النار» من بيت البردة:

والنار خامدة الأنفاس من أسف عليه والنهر ساهي العين من سدم

«النار معروفة وهي مؤنثة، ويقال في تصغيرها: «نويرة». وهو دليل على أن ألفها منقلبة من واو، وتجمع على أنُور ونِيران»[135]. فقد تناول لفظ النار وأشار إلى تأنيثها، وتصغيرها، وجمعها، وإفرادها. وفي لفظ «دام» من بيت البردة:

دامت لدينا ففاقت كل معجزة من النبيئين إذ جاءت ولم تدم

قال: «قيل: دام فعل معروف من الدوام إلاّ أن فيه لغتين. إحداهما: فعل بالفتح والأخرى فعل بالكسر.

فأما الأولى فهي الشهيرة وعليها جاء قولهم: «دُمت تدُوم» بضم الدال في الماضي. وأصله دومت بفتح الواو على فعلت ثم وقع التغيير والنقل وعلى اللغة الثانية جاء قولهم. دمت بكسر الدال، وكان القياس: «تَدَام» بالألف كخفت تخاف لأنه قياس المضارع في «فَعَل» المكسور العين إلاّ أنه على شذوذ فيحفظ ما يقاس عليه، ومثله: مِتُّ تَموت في لغة من كسر الميم. وكذلك قولهم في فضل يفضُل بكسر الضاد في الماضي، وضمها في المضارع»[136].

فقد اهتم بالميزان الصرفي لبعض الألفاظ على حسب لغاتها وصيغتها في الماضي والمضارع مراعياً في ذلك قياسها في الأصل وشذوذها عن هذا القياس. وفي لفظ «السنة» الوارد في بيت البردة:

وأحيت السنّة الشهباءَ دعوتُه حتى حكى غرة في الأعصر الدّهُم

قال: «السّنة معروفة، واختلف في أصلها، فقيل: سَنْهَة على وزن جَبْهة حذف لامها. ونقلت حركتها إلى النون فبقيت سنة لأنّها من سنهت النخلة: إذا

---

(135) انظر: م. س: 20ب.

(136) انظر: م. س: 37ب/ 38أ.

أتت عليها السنون. وقيل: أصلها سَنْوة بالواو، فحذفت كما حذفت الهاء. لقولهم: تسنيت عنده: إذا أقمت عنده سنة، فلهذا يقال على الوجهين: استأجرته مسانهة ومساناة وتصغيره سُنَيْهة، وسنيَّة، وتجمع على سَنَهَات وسنَوات. فإذا جمعتها جمع الصحة كسرت السين فقلت: سنون في الرفع، وسنين في النصب والجر، ويجعل الإعراب على النون الأخيرة، فإذا أضفتها على الأول أسقطت نون الجمع للإضافة، وعلى الثاني: لا تسقطها فتقول: سنون زيد، وسنُو زيد»[137].

فقد تناول لفظ «سنة» في أصلها ووزنها وفي إفرادها وجمعها وإضافتها، وتصغيرها مبيناً مختلف الأوجه فيها.

والخلاصة أن أبا الوليد في شرحه قلما أورد مسائل لغوية أَو نحوية مفصلة، وقَلَّما أسهب في إعراب لفظ من الألفاظ إذ كان اهتمامه منصرفاً إلى اللفظ في أصله وتطور دلالته واستعمالاته، وإذا ما وردت إشارات إلى أحداث تاريخية أَو قصص دينية أَو أخبار أدبية ونال المؤلّف منها في الشرح حيزاً كبيراً مستطرداً متقصياً فذلك خدمة للفظ ومعناه.

مصادر ومراجع البحث

المخطوط:

- مخ «استنزال الفرج بعد الشدة في شرح قصيدة البردة» لأبي الوليد بن الأحمر. رقمه بالزاوية الحمزية 546.
- مخ مختصر الجادري على شرح ابن الأحمر رقمه بخزانة القرويين 40/ 643.

المراجع:

- أبو الوليد بن الأحمر: لعبد القادر زمامة ط1978.
- أعلام الفكر والأدب في العصر المريني لمحمّد الدباغ ط1992 ـ الدار البيضاء.

(137) انظر: م. س: 34أ.

- تاريخ علماء الأَندلس لابن الفرضي ط 1966.
- تاريخ النقد الأَدبي في الأَندلس: د. محمّد رضوان الداية: ط1401هـ ـ 1981م.
- التنبيه على أوهام القالي لأَبي عبيد البكري ط دار الفكر.
- ديوان الأعمى التطيلي. ت إحسان عباس ـ دار الثقافة ـ بيروت. لبنان ط1963.
- سلوة الأنفاس لمحمّد بن جعفر الكتاني ط فاس: 1318هـ ـ 1900م.
- شروح سقط الزند تحقيق جماعة من المحققين ط1964.
- شرح مقامات الحريري ط الأولى ـ 1979 دار الكتب الوطنية.
- طبقات الزبيدي: ط دار المعارف مصر.
- كتاب الاستدراك على سيبويه للزبيدي ط 1980 روما.
- كشف الظنون.
- مجمع الأمثال للميداني ط 1374هـ ـ 1955.
- نثير فرائد الجمان لابن الأحمر. ت محمّد رضوان الداية ط دار الثقافة 1967.
- ورقات عن الحضارة المغربية في عصر بني مرين لمحمّد المنوني ط1979.

المجلات:

- مجلة تطوان ع 8 ـ 1963. مقال لمحمّد المنوني ص17.
- مجلة المناهل ع 52/ 1996 مقال لـ. د: علي لغزيوي «بعنوان: شرح البردة لأَبي عبد الله الأليري» ص167.

الرسائل الجامعية:

- شروح بردة البوصيري بالمغرب والأَندلس خلال القرنين الثامن والتاسع الهجريين: تاريخها، أنواعها، مذاهبها. لسعيد بن الأحرش رسالة لنيل دكتوراه الدولة.
- الكتب المشرقية في الأَندلس رواية وشرحاً من النشأة إلى ق7هـ لمحمّد بناني زبير رسالة لنيل دبلوم الدراسات العليا.

الصورة الأولى من المخطوطة

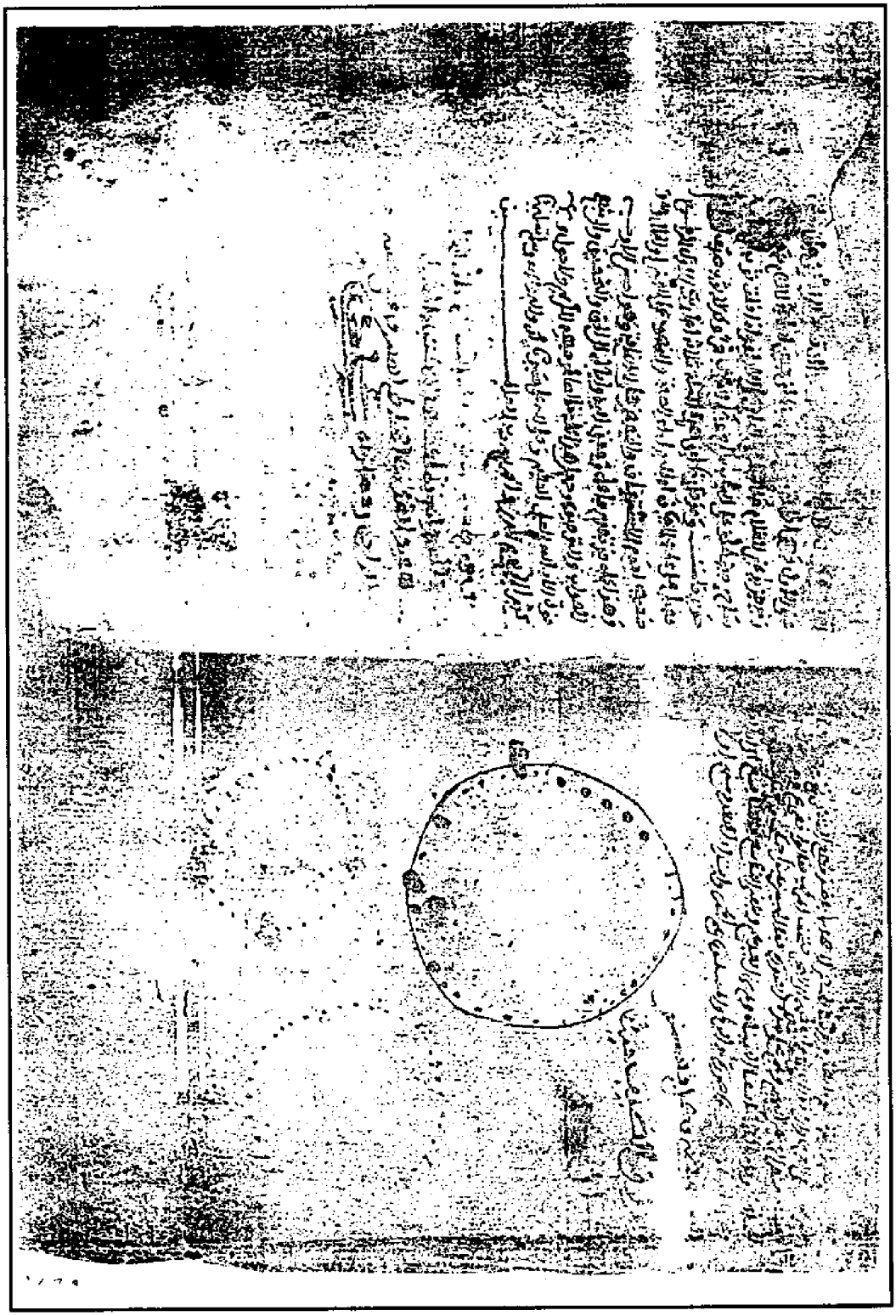

الصورة الأخيرة من المخطوطة